حكايات زهير رسّام
للأطفال

م.م. رائدة عباس علي السراج*

ملخص البحث

يهدف البحث إلى دراسة نشأة الحكاية الشعبية الموصلية الموجهة للأطفال باعتبارها جنساً من الأجناس الآدبية التي حظيت في الفترة الاخيرة باهتمام القاص زهير رسّام، وتسليط الضوء على أبرز التقنيات الفنية التي تمّ إستخدامها من قبل في الحكاية وفائدتها في تبصير الأطفال بالقيم الأخلاقية والتربوية وغسرها في عقولهم بطريقة محببة وممتعة بعيدة عن السردية والوعظية المباشرة.

Abstract.

The aim of this paper is to study the rise of the Mosul popular tales that concern the children paid attention by the tulle-teller Zuhair Rassam.It is also aims to shed light on the prominent literary techniques that hads been used by him, its role in implanting in children moral and educational Values, apart from the direct enumerative and preachy ways.

مقدمة:

تعد الحكاية الشعبية في أدب الأطفال جنساً من الأجناس الأدبية التي حظيت في الفترة الأخيرة باهتمام كبير من قبل القاصين، ولرغبتي الكبيرة والمعّمقة لدراسة هذا النوع من السرديات الخاص بالأطفال وإيماني العميق بالمستقبل القادم الذي لا ينهض إلا من خلالهم بما نغرسه في بنيانهم الروحي والعقلي من تقاليد اجتماعية وعادات وقيم تربوية وأخلاقية، ارتأيت دراسة هذا الموضوع واختياره مادة للبحث.

* مدرس مساعد/ مركز دراسات الموصل

وتقوم خطة البحث على مقدمة وتمهيد وأربع محاور، تضمّن التمهيد إعطاء نبذة مختصرة عن سيرة حياة القاص زهير رسام، وخصص المحور الأول لبيان مراحل تطور الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال،أما المحور الثاني فخصص لدراسة الحدث في الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال، وخصص المحور الثالث لدراسة الشخصية في الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال، وخصص المحور الرابع لدراسة اللغة والأسلوب في الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال، وانتهى البحث بعد ذلك إلى جملة استنتاجات جمعت فيها قدر الإمكان ما تناثر عبر محاور البحث.

التمهيد:

سيرة حياة القاص زهير رسام:

كاتب عراقي ولد في مدينة الموصل في منطقة الميدان عام ١٩٣٩، وفيها نشأ من أبوين عربيين وعائلة عربية فنية فقد أشتهر والده وكان معلماً بتحنيط الحيوانات التي كان يصطادها بنفسه، وكان عمه حنا رسام من رواد كتاب المسرح في العراق.

أنهى القاص دراسته الابتدائية في مدرسة الطاهرة للبنيين الواقعة في شارع النبي جرجيس، أنهى دراسته المتوسطة في متوسطة الحدباء للبنيين الواقعة في شارع الفاروق، أنهى دراسته الإعدادية في ثانوية الشرقية للبنيين الواقعة قرب الجسر الثاني القريب من نادي الضباط في ذلك الوقت، ثم انتقل إلى بغداد لإكمال دراسته الجامعية فيها، تخرّج من كلية التربية، قسم اللغة العربية عام ١٩٦٠ــ١٩٦١ ونال شهادة البكالوريوس، وعمل في التدريس مدة طويلة، ثم أحيل على التقاعد بعد بلوغه السن القانونية.

وكانت بداية التفات القاص إلى كتابة الحكاية الشعبية في صباه، إذ كان يلقي الحكاية الشعبية على أصدقائه شفهياً، خاصة الحكايات التي كان يسمعها من والدته، أو الحكايات التي كانت من إبداعه الخاص التي نجح القاص في إلباسها ثوباً يليق بها مع إعطائها أجواء خاصة من كائنات غريبة كالسعالي، والديو، وشيخ الشط، والجان وأشياء غير معقولة يتدخل فيها القدر.

وقد نشرت مجلة (مجلتي) للقاص عدداً من الحكايات الشعبية منها:ــ

١)حكاية (القابلة قطة والسعلاة)، مجلتي، العدد(٢٣) في١٩٨٩/٦/٥.

٢)حكاية (صوت الحق) مجلتي، العدد(٢٨) في١٩٨٩/٧/١٠.

٣)حكاية (صياد السمك) مجلتي، العدد(٣١)في١٩٨٩/٧/٣١.

وسعى القاص بعد ذلك إلى جمع هذه الحكايات بعد إجراء تعديلات مناسبة عليها كي يتم نشرها في كتاب أسماه(الفلاّح الطيّب والطير الأبيض) الصادر عن دار ثقافة الأطفال عام ١٩٩٢، وعددها عشر حكايات تتصف بأحداثها الشعبية الساحرة و"بأبطالها الواقعيين والوهميين محّكمة الدقة في رسم الصور والمشاهد والملامح معتمدة عنصر التشويق، متتبعة وبمسار عقلاني أو خرافي، عقدة الصراع بين الخير والشر،واغلبها حكايات عن هذا الصراع،منتصرة للحق،هذه الحكايات الشيقة للأطفال والتي تنّمي فيهم قوة المخيّلة...وتربّي فيهم الفطنة والانتباه والحذر،وكيفية التخلص من مكائد السيئين والأشرار،وتنعش أرواحهم بحوادثها وأحاديثها المقنعة وغير المقنعة، وتضعهم بتأثيرها الحكائي الذكي والواعي،لتصبح هذه الحكايات دروساً تربوية وبرمزيتها ودلالتها الموحية،متفوّقة على الدروس التقليدية الواضحة الوعظية والمكشوفة بنصائحها المباشرة التي قد يملّها الصغار لرتابتها وتكرارها."[١]

المحور الأول:

مراحل تطور الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال.

يعد الطفل محوراً من المحاور التي لاقت اهتمام المعنيين بجمع التراث الشعبي عند ظهور علم المأثورات الشعبية، ولقد برزت هذه الحقيقة عندما قام" الأخوان جرم بجمع الحكايات الشعبية الألمانية، فقد أدركا منذ اللحظة الأولى قيمة هذه الحكايات بالنسبة للطفولة والاطفال."[٢]

وتعد الحكاية الشعبية الحلقة الكبرى في التراث الأدبي الشعبي ذلك لأنها " تمثل لقاء الماضي بالحاضر...لقاء الكبار بالصغار...لقاء الشرق بالغرب، والباعث على احتفاظها بهذه المزية هو التقاء الخيال بالواقع فيها إلى جانب التقاء الحلم بالحقيقة"[٣]مما جعلها أنسب الأشكال وأقربها إلى الطفل.

الحكاية الشعبية في اللغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور أن الحكاية معناها "حكيت فلاناً وحاكيته فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه، وحكيت عنه الحديث حكاية."[٤]

أما الحكاية الشعبية اصطلاحا:

فهي حدث من أحداث الماضي غير المدون رواه إنسان ما بطريقته الخاصة أمام الآخرين وتمتاز بكونها " ليس لها مؤلف واحد معروف، بل هي حاصل ضرب عدد من

ألوان السرد القصصي الشفاهي الذي يضيف إليه الرواة أو يحوّرون فيه وفقاً لما يستهدفون منه."[٥] وتنسب إلى الجماعة وتعبرعن عواطف الجماهير، وتدور حول معضلات الإنسان الحياتية من محاربة الشر ومواجهة المواقف الصعبة، والكفاح من اجل الرزق.

ويرجع ظهور الحكاية الشعبية إلى أمد بعيد، حيث ظلت الشعوب تتناقلها جيلاً بعد جيل، فقد كانت وليدة معتقدات وعادات وعواطف الناس في أزمنة بعيدة.ولرواية الحكاية الشعبية تقاليد خاصة، فحكايات النساء غير حكايات الرجال، ويكون وقت الحكاية عادة في الليل إذ كان الناس قديماً يتسامرون بقضاء الليل في سماع الحكايات من امرأة عجوز تروي الحكاية ويلتف حولها الأطفال الذين يطالبونها بإعادة رواية الحكاية مرتين أو اكثر وذلك ""لرغبتهم في تخّيل صور الحكاية تخّيلاً مناسباً لها يبقى راسخاً ولامد ربما يستمر للكبر، فهي تتناول الجزء العاطفي من شخصية الطفل، على العكس من الحقيقة الواقعية التي تتصل بالجزء العقلاني من شخصيته."[٦]

وحين بدأت حركة تدوين الحكاية الشعبية، وجد أن هناك قسماً منها لا يصلح أن يكون مادة لادب الأطفال، وهذا ما أشار إليه الدكتور هادي نعمان الهيتي بقوله" إن من بين الحكايات الشعبية ما يمكن أن يصلح للأطفال ومنه ما ينبغي إبعاده عنهم لما يحمله من أضرار، ومنه ما يمكن إعادة كتابته في مضمون وشكل مناسب."[٧]وهناك رأي آخر للدكتور عبد التواب يوسف يقول فيه أن " الحكاية الشعبية ليست في حقيقة الأمر قصصاً للأطفال، وأنها في الواقع أعمال فلسفية تحمل في ثناياها الإنسانية صدقاً واضحاً، لكن ذلك لايعني ابداً أنها لا تصلح للأطفال وبعيدة عنهم، حيث انه بات من الضروري ألا نتدخل في هذه الأعمال نبسّط فيها، ونجهل منها، حتى لا تجرح عقولهم ومشاعرهم البريئة، أما أن نقدمها أو لا نقدمها، أما افتراسها بحجة تنقيتها من الشوائب فهو أمر يجب أن لا نرتكبه، خاصة وان الأقلام التي تتناول هذه الحكايات لا نظنها ترمي إلى مستوى عبقرية الشعب الذي أبدعها، وان الأطفال يتّقبلونها حتى قبل أن يفهموها جيداً."[٨]

وقد خالف بعض الباحثين الدكتور عبد التواب يوسف في رأيه لاعتقادهم بان الحكاية الشعبية منذ ظهورها قد مرت بأطوار عديدة، أضيف عليها أو حذف منها الكثير من القصص طيلة مئات السنين وربما آلاف السنين حتى وصلت إلينا بشكلها النهائي الذي نعرفه اليوم، فما المانع من تبسيط بعض الحكايات الشعبية وتقديمها للطفل في شكل قريب وملائم للحياة العصرية التي يعيشها، إذ " لا يحق لنا أن نجعل من طفولتنا حبيسة أخيلة وتحليلات

وتصورات وتأملات مجتمعات متخلّفة"[٩]. والدليل على ذلك حركة تحوير وتطـوير بعـض الحكايات الشعبية التي أعقبت حركة التدوين وكانت مكّملة لها، حيث" أن تطـوير وتطويـع الحكايات الشعبية بحيث تمسي ملائمة للأطفال هو جزء من عملية تطوير فن شعبي عريق، لايمكن أن تظل له قيمة ما لم يتجدد، فمن الضروري تجديد أفكار بعض الحكايات الـشعبية وحذف كل ما يشوبها من الإيهام الذي يقف الطفل قبالته محتاراً، ووضعها في قوالب أدبيـة جديدة."[١٠]

وقد أستمد القاص ثيمة حكاياته من التراث الشعبي فهو بذلك يكون قـد سـعى إلـى توظيف التراث الشعبي لكي يكون ذخيرة تراثية تستخدم في تنمية قابليات الأطفـال الأدبيـة فضلاً عن أن هذه الخطوة جعلت التراث متحرراً من الجمود والركود، غير مهتم للتحـولات الحضارية في كل جوانبها. وهذا يعني أن أجدادنا تركوا آثراً أدبياً في حياة الأحفاد من خلال الموروث الشعبي الذي ترفدنا به حكاياتهم الشعبية.

المحور الثاني:

الحدث في الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال.

يعد الحدث عنصراً من العناصر الأساسية في الحكاية، فهو بمثابة العمود الفقري في بنية الحكاية الشعبية، وبه تتحدد أهمية العمل ويتقرر مدى نجاحه أو فشله.

فالحادثة الفنية هي " تلك السلسلة من الوقائع المسرودة سرداً فنيـاً، يـضمها إطـار خاص"[١١].

ويعد تسلسل الحدث ونموه في الحكاية الشعبية مهماً، حتى تكون للحكايـة " بدايـة أو موقف تتبلور فيه العوامل التي يترتب عليها نمو الحدث بـشكل معـين، ثـم وسـط ينمـو بالضرورة من تلك البداية وتتشابك فيه عناصر الموقف، واخيرا نهاية يتحقق بهـا اكتمـال الحدث وتتمثل فيها لحظة الاكتشاف التي تكشف لنا المعنى الذي يريد" [١٢] القاص نقله إلـى الطفل، فتتسلسل الأحداث يحافظ على جذب انتباه الطفل للحكاية مما يحفزه علـى مواصـلة قراءة النص والاستمتاع به .

وتمثل الحبكة جزءاً مهماً من الحدث وذلك لقيامها " بترتيب الأحـداث بطريقـة مـشوقة ودقيقة بحيث لا يظهر من العقدة الا ما يسمح به القاص وفي وقته المناسب، حتـى يـصل بقارئه إلى الخاتمة الشافية المشبعة."[١٣]

وعادة ما يكون بناء الحبكة في الحكاية الشعبية بسيطاً ومباشراً وتكون حركة الأحداث سريعة ومختصرة، إذ ينتقل البطل من حدث إلى أخر بكلمات قليلة وغالبا ما تنتهي بنهايات سعيدة وبسرعة وقد تتضمن قليلا من التفصيلات.كما في حكاية(بنت السلطان-معان-وطير السعد)

" وكان احتفال كبير بزواج يونس من قمر الزمان
احتفال شارك فيه الناس كلهم وكانوا فرحين بذلك
لانهم يحبون أميرتهم الجميلة معان، كما احبوا زوجها
يونس لشجاعته وطيبته، فرح الناس كلهم أيضاً
بالتخلص من الديو المرعب الذي قطع طريق التجارة
وأرعب الناس.
دامت الأفراح سبعة أيام، وفي اليوم السابع وزع
السلطان ويونس الأموال التي جلبت من كهف الديو
على أبناء الشعب كلهم بالتساوي فازداد الفرح وعم الخير
جميع البلاد، وعاش الناس كلهم عيشةً سعيدة رضيّة."(١٤)

أن الغاية التي يهدف القاص تحقيقها من وراء جعل حركة الأحداث سريعة، ومختصرة هو لابعاد الملل عن الأطفال، فالأطفال بفطرتهم يكونون غير قادرين على التركيز لمدة طويلة فغالباً ما يشعرون بالملل بعد فترة قصيرة من قراءة الحكاية مما يدعو القاص إلى جعل الأحداث سريعة حتى يحافظ على انتباه الطفل واستيعابه الصحيح للحكاية.كما جاء في حكاية(حطاب اسمه إبراهيم) التي جاءت خاتمتها منطقية ومختصرة، ففي الحكاية يربط القاص بين السعادة والفقر والغنى، إذ توضح الحكاية الاختبار الذي وضع فيه الحطّاب إذ يظهر أمامه في الغابة رجل شيخ بثياب بيض، فأغراه أن يعمل معه في بيع الذهب للصاغة، فبذلك اصبح إبراهيم تاجر ذهب مع بقائه حطاباً، باع الذهب في السوق فامتلأ كيسه بالمال وأعطاها كلها للشيخ لانه أراد أن يعرف مصدر الذهب فقد يكون الذهب مسروقاً، هذه الأسئلة وغيرها أيقظت ضميره، فالذهب لم يفقده توازنه، المال لم يؤثر على سلوكه الطيّب.

" ابتسم الشيخ وقال: أحسنت يا ابراهيم، لقد اجتزت الامتحان بنجاح، وربت على كتفه، أن بريق الذهب لم يبهرك ويفقدك عقلك كما افقد عقل الكثيرين فتتكروا لاخلاقهم ومبادئهم...ثم غاب الرجل ذو الثياب البيض عن نظره."(١٥)

فالمغزى من الحكاية واضح يتمثل في رغبة القاص بتعليم الطفل الابتعاد عن مغريات الذهب، وعدم الاهتزاز أمام مغريات الأغنياء، وان لا يبيع الإنسان ضميره ونفسه بالذهب، بل يبقى جوهر الإنسان نظيفاً طيّباً متواضعاً محباً لمساعدة الآخرين.

المحور الثالث : الشخصية في الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال.

الشخصية :" مجموعة الصفات الاجتماعية، والخلقية والمزاجية والعقلية والجسمية التي يتميز بها الشخص، والتي تبدو بصورة واضحة،متميزة في علاقته مع الناس."(١٦)

وللشخصية بعدان هما:-

١) البعد الجسمي

يتضح هذا البعد من خلال قيام القاص بشرح الخواص الجسمية للشخصية في الحكاية الشعبية باختصار كدليل على قوة الشخصية وعظمتها. كما هو موّضح في حكاية(بنت السلطان-معان-وطير السعد) التي تتضح فيها الصفات الجسمية للبطل بكونه بهيّ الطلعة، جميل الشكل، إضافة إلى سمات الرجولة والشجاعة التي يتصف بها من خلال هيئته وقامته الفارعة ومشيته المتميزة.

" شاب طويل يمشي بثبات على الأرض

وسمات الرجولة والقوة والشجاعة في هيئته وقامته الفارعة."(١٧)

فمن خلال الحكاية يتبين للقارئ أن غاية القاص تكمن في رغبته بتقويم عادات الطفل السلوكية وغرس صفات الرجولة والشجاعة في نفسه من خلال الشخصية المرسومة بعناية ودقة والتي تكون اكثر قدرة وفاعلية في التأثير، لان الطفل" بحاجة لرؤية الشخصية أمامه في الحكاية حيّة مجّسمة، وان يسمعها تتكلم بصدق وحرارة واخلاص حتى يرى فيها النموذج الذي يحتذ يه فتترك أثرها فيه سلباً أو إيجابيا."(١٨)

٢) البعد النفسي

نجد في حكاية (صياد السمك) بعداً آخر من أبعاد الشخصية الا وهو البعد النفسي، فالحكاية تّصور لنا البعد النفسي لشخصية حارث من خلال وصف حالة الخوف والفزع التي أصيب بها عند رؤيته لشيخ الشط بعد أن رمى بالخيط في النهر.

فشيخ الشط: كائن خرافي تتحدث عنه العجائز لإخافة الصبيان وابعادهم عن النهر خوفاً من الغرق.

"يا الهي! قال حارث، انه شيخ الشط، هذا الذي
حدّثتني عنه أمي عندما كنت صغيراً
بقي الصياد حارث جالساً والخيط بيده يرتعش."(١٩)

وبدلاً من تهرّب حارث من الموقف المخيف الذي تعرض له، قام بمواجهته بكل ثقة وشجاعة من خلال تبريره لشيخ الشط عن سبب انتهاكه لحرمة الشط، وان قيامه بصيد السمكات الثلاث لم يكن سببه طمع الصياد بل كانت غايته تكمن في تقديم العون لوالديه والرعاية لاسرته والمساعدة لجاره الفقير.

"عفوك أيها الشيخ الجليل، أنني
لست طمّاعاً، بل اكره الطمع كراهية كبيرة، ولكن
السمكة الأولى لوالديّ الشيخين العجوزين
والسمكة الثانية لأطفالي وزوجتي، والسمكة الثالثة
التي انتظرها لجاري الذي رجع اليوم إلى بيته بلا عشاء."(٢٠)

فمن خلال قراءتي للحكاية تركز في ذهني التساؤل الآتي:
هل أن جنوح حارث إلى اللين والمهادنة مرده إلى انه في وضعية المسيطر عليه، الضعيف العاجز عن مواجهة خصم يفوقه قوةً فيكون تصرفه من قبل الحيلة والخداع(ظاهر+ با طن) أم انه يظهر ما يبطن حقاً فيحتل مرتبة الصدق.

أن استقراء سريعاً للحكاية يفيد بان القيم المذكورة على لسان حارث تستوي في محل رفيع من سلم القيم المضمنة فيه، لذا نفترض افتراضاً شبيهاً باليقين أن حارث يتكلم من موقع صدق.

فهذا النوع من الحكايات يساعد الطفل على التغلب على بعض الظواهر النفسية التي قد يعاني منها كالتهّرب من المسؤولية مثلاً وتمنحه الثقة الكاملة لان يجد معنىً وهدفاً في الحياة " "فالطفل حينما يستمع إلى حكاية معينة، يصوغ من المضمون فنتازيا واعية، وهذه تتوغل في انفعالاته ومشاكله وهي بالتالي تحد بنجاح من إمكانية حدوث أي نوع من أنواع الاضطهاد في العقل الباطن."(٢١)

المحور الرابع :

اللغة والأسلوب في الحكاية الشعبية الموجهة للأطفال.

تعد اللغة وسيلة الإيصال الرئيسة للقاص، فمن خلالها يتّمكن القاص من إيصال أية معلومة يريد غرسها في أذهان الأطفال.

وقد عرّف ابن جني اللغة بأنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(٢٢).

أما لغة الطفل فهي " إحدى وسائل النمو العقلي والتنشئة الاجتماعية والتوافق الانفعالي عند الطفل."(٢٣)

ونجد قديماً أن الحكاية الشعبية كانت تسرد بأكثر من لغة أو لهجة في أماكن أو محاليل مختلفة ويرجع السبب في ذلك إلى" اختلاف لهجات المحاليل التي هي ترجع إلى اختلاف الأصول القبلية التي سكنت الموصل منذ القدم."(٢٤) فكل قبيلة كانت تروي الحكاية باللهجة المتعارف عليها عندها مما دفع اغلب القاصين إلى استخدام اللغة العربية الفصحى البسيطة القريبة من إدراك الطفل حتى لايجد صعوبة في فهم الحكاية واستيعابه لها. إذ يعيش الطفل عند قراءته للحكاية الشعبية حالة انسجام خاصة فكلمات الحكاية وجملها تثير خيال الطفل وتجعله يرسم الشخصيات ويتخيلها في ذهنه كما يحلو له، وإذا أراد إعادة سرد الحكاية لغيره، فهو لن يكون ملزماً بروايتها بنفس تعابير مؤلفها بل انه يستطيع أن يستخدم مفرداته وتعابيره الخاصة به، إذ أن " إعادة سرد الحكاية من قبل الطفل تمكنه من إتقان ربط الجمل بعضها ببعض، وتبدأ عند الطفل ملكة المحافظة على التخييل بالظهور والنمو وهي التي تساعده على الحفظ والتركيز وإضافة ما يراه مناسباً."(٢٥)

وتعد اللغة أداة تصور وإدراك فهي" الأداة التي تحول المعنى في الحكاية من مجرد كلمات إلى مدركات حسية يكاد يلمسها الطفل وهو يتخيلها." (٢٦) ففي حكاية (بنت السلطان ــ معان ــ وطير السعد) تطلعنا صور تنتظم حول الثنائيات التالية.

قوة البنية الجسدية التي ساعدت يونس في القضاء على الديو.

" نهض الديو بتثاقل إلا أن يونس لم يمهله فهجم عليه

هجمةً خاطفة قطع فيها ذراع الديو الأيمن، ثم كرّ عليه

يونس وعاجله بضربة ثانية أطاحت بالذراع الأيسر."(٢٧)

وفي حكاية (صياد السمك) تطالعنا صورة أخرى تنتظم حول الثنائية التالية وهي خوف حارث من الهلاك الذي سيلحقه به شيخ الشط لانتهاكه حرمة الشط.

" بقي الصياد حارث جالساً والخيط بيده يرتعش
حاول إن يسيطر على خوفه ويهدئ من اعصابه، وبسمل مع نفسه"[٢٨].

ونلتمس من خلال النص السابق حضوراً خفياً للقاص لكنه فاعل في الوقت ذاته، إذ تتضح الغاية التي استهدف القاص إيصالها إلى الطفل تقوم على الاستدلال بالمثال الحي على إمكانية تغلب الضعيف على القوي أن صح منه العزم والتوسل بالمعرفة موظفاً إياها بحذق وكفاءة عالية.

وتظهر الوظيفة التصويرية للغة من خلال الأسلوب.

فالأسلوب: هو" طريقة الكاتب أو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الالفاظ، وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح و التأثير"[٢٩]

فالأسلوب خاصية فردية متميزة، إذ انه لكل قاص أسلوبه الخاص به يميزه عن غيره من القاصين حيث يكشف الأسلوب عن طريقة القاص في التفكير والشعور اللذين يتم نقلهما إلى الطفل في صور لغوية معينة، فالقاص المبدع هو الذي " يستطيع أن يستخدم هذه الألفاظ بطريقة مطاوعة نجعله مسيطراً على التعبير، قادراً على نقل ما يريده من الصور الذهنية إلى مادته اللفظية في حالة حية"[٣٠].

وتنفرد الحكاية الشعبية بأسلوبها الخاص فنجد أن اغلب الحكايات تستهل بـ " كان يا ما كان على الله التكلان) كما في حكاية (حطاب اسمه إبراهيم)"كان يا ما كان وعلى الله التكلان، كان في قديم الزمان"[٣١] وحكاية (في ليلة صيفية مقمرة).

"كان يا ما كان وعلى الله التكلان، وله التسبيح وحده ومنه الغفران على مر العصور والزمان"[٣٢] وتنتهي بهدف تعليمي للحكاية.

ويتراوح أسلوب القاص زهير رسام بين الوضوح والغموض فنجده في بعض حكايات يأتي أسلوبه مليئاً بالرموز المرعبة التي تدخل الخوف إلى قلوب الأطفال كالديو والدامية والسعلوة كما جاء في حكاية (انه ليس حلماً) التي يأتي القاص فيها بشخصية السعلوة في صورة متوحشة ومخيفة وبشعة.

"قطف باسل زهرة – زهرتين.. عدة زهرات وإذا أمامه
تقف سعلوة بقامتها الطويلة المخيفة وشعرها المنفوش

وفمها الواسع الكبير.. ووجهها المتوحش"[٢٢]

ولكن نجده في موضع آخر من الحكاية يأتي أسلوبه بسيطاً واضحاً قريباً من مدارك الطفل، فقد سخر القاص مهارته الإبداعية في الكتابة جاعلاً من شخصية السعلاة شخصية طيبة وحنونة تعامل الصبي بلطف وتعمل على إعطائه أزهار البابونج لإنقاذ حياة ابن جارته المريض فالغاية من توظيف هذه الكائنات في الحكاية بهذا الأسلوب هي لخدمة الطفل والوصول به إلى هدف سام ونبيل في الحياة.

"لاتخف أيها الولد الطيب، أنا اعرف لماذا تقطف
أزهار البابونج، لاتخف أيها الولد انك طيب وشجاع
ومدت يدها وقدمت له باقة كبيرة من أزهار البابونج"[٣٤]

أما أسلوب الحكاية الشعبية، فقد امتاز باستخدام القاص للابتداءات في مقدمة الحكاية كقصة (في ليلة صيفية مقمرة) التي ابتدأها القاص بالاستهلال الاتي:

"كان يا ما كان وعلى الله التكلان، وله التسبيح وحده ومنه الغفران على مر العصور والزمان"[٣٥].

ونجد أيضاً في الحكاية الشعبية إضفاء القاص بعض التشبيهات الخاصة بالفتاة كأن يشبهها مثلاً بالقمر كما في قصة (بنت السلطان– معان– وطير السعد)[٣٦] التي يصف القاص فيها الجمال الذي امتازت به بنت السلطان.

وتميزت لغة الحكاية الشعبية بالوضوح والسهولة والبساطة وان وجدت كلمة غامضة فيها توجب على القاص توضيحها من خلال سياق الحكاية، إذ" يلجأ القاص إلى التعليقات لشرح ما غمض من المواقف والمعاني، وتعليقات القصاص تثري المعنى وتغنيه إذا جاءت في مكانها الصحيح ووضعت بمهارة بين أحداث القصة"[٣٧] كقصة (رهان وشهامة) التي ترد فيها مفردة (القصخون) وهي مفردة غامضة بالنسبة للطفل وإدراكه، لكننا نجد أن القاص يوضح معنى المفردة ضمن سياق القصة فيبين أن (القصخون) هو راو يقوم برواية الحكاية الشعبية في المقهى.

"في زاوية من مقهى الحي كان أربعة شباب جالسين مساءاً
معاً يصغون إلى ما يرويه (القصخون) الراوي من
حكايات البطولة

والجالسون في المقهى صامتون هادئون يتابعون كلام
الراوي الشيق وحركات يديه وقسمات وجهه"[٣٨].

الخاتمة والاستنتاجات

لكل عمل خاتمة، إذ انتهى البحث إلى جملة نتائج جمعت فيها ما تناثر عبر مباحث البحث:

١. تعد الحكاية الشعبية الحلقة الكبرى في التراث الأدبي الشعبي لأنها تمثل الماضي بالحاضر.. التقاء الأجداد بالمعاصرين مما جعلها اقرب الأشكال الأدبية إلى الأطفال.

٢. لقد مرت الحكاية الشعبية منذ ظهورها بأطوار عديدة أضيف إليها وحذف منها الكثير من الحكايات طيلة هذه الفترة حتى وصلت إلينا بشكلها النهائي الذي نعرفه اليوم، فما المانع من تبسيطها وتقديمها للطفل بشكل يلائم الحياة العصرية التي يعيشها الطفل لمواكبة حركة التطور وتحوير بعض الحكايات الشعبية التي أعقبت حركة التدوين وكانت مكملة لها.

٣. لقد سعى القاص زهير رسام إلى جعل حركة الأحداث في الحكاية الشعبية الموصلية سريعة، وذلك لابعاد الملل عن الأطفال، ولكي يحافظ على انتباه الطفل واستيعابه الصحيح للحكاية.

٤. للشخصية في الحكاية الشعبية بعدان هما:

أ.بعد جسمي يفيد تقويم عادات الطفل السلوكية وغرسها في نفسه من خلال الشخصية المرسومة بدقة وعناية، فان كانت الشخصية طيبة وشجاعة، فان الطفل سوف يقتدي بها وتقليدها، أما إذا كانت الشخصية سيئة ومرعبة، فان ذلك سوف يدفع الطفل إلى الابتعاد عنها.

ب.بعد نفسي يساعد الطفل على التغلب على بعض الظواهر النفسية التي قد يعاني منها كالتهرّب من المسؤولية وتمنحه الثقة الكاملة لن يجد معنىً وهدفاً في الحياة.

٥. يتفاوت أسلوب القاص ما بين الوضوح والغموض فنراه يأتي أسلوبه واضحاً وبسيطاً و تارة يأتي مليئاً بالرموز المرعبة التي تدخل الخوف إلى قلوب الأطفال، فالغاية التي سعى القاص من وراء إظهاره لهذه الشخصيات بهذا الشكل هي محاكاة عقلية الطفل وليبرهن له بان هذه الشخصيات هي نسيج من وحي الخيال وليست حقيقية.

هوامش البحث:

١. محمد رجب النجار، جحا العربي (شخصيته وفلسفته في الحياة والتعبير) سلسلة عالم المعرفة، ط٢:ذات السلاسل (الكويت،١٩٨٩) ص٣٠٩.

٢.المصدر نفسه، ص ٣١٠.

٣.عبد الحليم اللاوند "الحكاية الموصلية–دراسة وعرض مع نماذج قصصية" مجلة التراث الشعبي، العدد العاشر، ١٩٧٢، ص ٨٣.

٤.ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب(بيروت، د.ت)، مادة حكي.

٥.هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال (فلسفته–فنونه–وسائطه)، الجمهورية العراقية (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨) ص ١٩٥.

٦.ثقافة الأطفال دراسات وأفكار (كتاب ٢) "إصدار مطبوع للأطفال، كتبه بالألمانية منصور بكري وترجمته بدوية عباس" (بغداد،١٩٩٠) ص ١٥.

٧.هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، (الكويت، ١٩٨٨) ص ١٨٦.

٨.عبد التواب يوسف، الطفل والموروث الشعبي، سلسلة دراسات، ط١، دار ثقافة الأطفال، (بغداد،١٩٨٩)ص ٣٥–٣٦.

٩.الهيتي، المصدر السابق، ص ١٩٨.

١٠.الهيتي، المصدر السابق، ص ١٩٩.

١١.عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه (القاهرة، ١٩٥٥) ص ١٥٩.

١٢.النصوص الأدبية، دراسة وتحليل، جامعة قطر، ص ١٦٧.

١٣.احمد عبد السلام البقالي" تقنية الكتابة للأطفال" مجلة ثقافة الطفل العربي، العدد ١٣٧، ١٩٩٢، ص ١٤٠.

١٤.زهير رسام،الفلاح الطيب والطير الأبيض، دار الكتب والوثائق (بغداد،١٩٩٢) ص ٥.

١٥.رسام، المصدر نفسه، ص ٥٢–٥٣.

١٦.احمد نجيب، فن الكتابة للأطفال، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر(مصر، ١٩٦٨) ص٥٤.

١٧.رسام، المصدر السابق، ص ٩.

١٨.محمد حسن بريغش، أدب الأطفال، (بيروت، ١٩٩٦) ط٢، ص ٢١٩.

١٩.رسام،المصدر السابق، ص ٢٧.

٢٠.رسام،المصدر السابق، ص٩.

٢١.ثقافة الأطفال، " إصدار مطبوع للأطفال، كتبه بالألمانية منصور بكري وترجمته بدوية عبـــاس" دراسات وأفكار، كتاب ٢،١٩٩٠، ص ١٢.
٢٢.أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجـــار، ج٢،(مطبعـــة دار الكتـــب المصرية، (القاهرة، ١٩٨٥)، ص٣٣.
٢٣.نبيل عبد الهادي، ويوسف شاهين، تطور التفكير عند الطفل، ط١، (عمان،١٩٩١) ص٦٣.
٢٤.علي احمد محمد العبيدي "الحكاية الشعبية الموصلية، مقارنة بنيوية–دلالية"، أطروحـــة دكتـــوراه (غير منشورة)، جامعة الموصل، ٢٠٠٣، ص ٣١٤.
٢٥.حسن ناجي "الطفل واللغة"، المؤتمر الحادي والعشرون لاتحاد الأدباء والكتاب العرب، بغـــداد، ٢٠٠١، ص ١٠.
٢٦.طاهرة داخل طاهر، قصص الأطفال في العراق (١٩٨٠–١٩٩٠)، دراسة (فنيـــة – تاريخيـــة)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية، جامعة بغداد، ٢٠٠١، ص٣١٥.
٢٧.رسام، المصدر السابق، ص٢٢.
٢٨.رسام، المصدر السابق، ص٢٩.
٢٩.احمد الشايب، الأسلوب، مطبعة السعادة، ط٦(مصر،١٩٦٦) ص٥٢–٥٣.
٣٠.محمد زغلول سلام، دراسات في القصة العربية الحديثة، مطبعة الكتـــاب المـــصري للطباعـــة والنشر، (القاهرة)، ص٣٥٠.
٣١.رسام، المصدر السابق، ص٤٧.
٣٢.رسام، المصدر السابق، ص٨٣.
٣٣.رسام، المصدر السابق، ص٢٤.
٣٤.رسام، المصدر السابق، ص٣٦.
٣٥.رسام، المصدر السابق، ص٨٣.
٣٦.رسام، المصدر السابق، ص٥.
٣٧.علي الحديدي، في ادب الأطفال، ط٢، منشورات مكتبة الأنجلـــو المـــصرية (القـــاهرة،١٩٧٦) ص١٨٥–١٨٦.
٣٨.رسام، المصدر السابق، ص٣٩.